مُقَدِّمَة

الحياة على كوكب الهند

أذكر آخر مرة كان العالم يتحدث فيها عن الهند. كانت تلك لحظة عابرة راجت فيها أزياء وصيحات عقب رحلة قام بها فريق البيتلز الغنائي إلى مدينة ريشيكش. وأصبحت ياقات وسبحات الزعيم نهرو من الأزياء الدارجة إلى جانب رسوم متكررة لبتلات مستدقة مطبوعة على أقمشة بألوان تثير اضطراباً في الذهن. وبات التأمل المتسامي المجرد آخر بدعة للتخلص من الإجهاد والتوتر العصبي؛ وحلت البرامج الفكاهية التلفازية مثل المسلسل الأمريكي «دع الأمر لبيفر» محل البرامج التي تقدم دروساً من الحياة، وتتناول قضايا جادة بوصفها البرامج التي تلقى إقبالاً وإعجاباً كبيرين، وبدت الهند فجأة رابطة الجأش واثقة، واحتضنت النماذج المتعارضة مع التراث، بلاد الهند بوصفها نقيضاً للغرب الضائع في المذهب المادي الأجوف لمشهد «البلاستيك»* الشهير في الفيلم السينمائي «الخريج».

لم تكن الهند متخلِّفة، كانت حكيمة وروحانية. إلا أن الغرب تقدم بعد ذلك. وسادت مفاهيم المشهد السينمائي، وتلاشت صورة الهند تدريجياً بعيداً عن الأضواء.

عاشت أسرة والدي الهندية في مدينة بومباي. وكنا نقوم كل بضع سنوات بالتحضير للقيام بالرحلة المدهشة إلى الجانب الآخر من العالم. كنا نقوم بتجميع إمدادات نفيسة لأقاربنا في الهند: سراويلات الجينز والأحذية الرياضية الخفيفة لنقدمها لأبناء عمومتنا الذين يمرون بمرحلة النمو، أوعية ضخمة من مسحوق العصير المسمى (تانج) Tang

* وفيه حوار عن المستقبل ومعنى الحياة وقيمتها عند الجيل الجديد، والنظرة المادية للجيل القديم والمفاهيم التي يأتي بها الغرب التي لا تتناسب مع تلك التي نشأ عليها الشباب، فيكون مصيرهم الضياع. (المترجمة).

ولاحقاً زجاجات كبيرة من دواء (تايلنول) Tylenol وأكياس بلاستيكية من اللوز والفستق اللذين يزرعان في ولاية كاليفورنيا. كانت أسرتنا ترسل إلينا قوائم بالأغراض والحاجيات المطلوبة، وكنا نملأ حقائبنا بكل ما كان بمقدورنا أن نملأها به.

لقد شعرت في أثناء إقامتي في بومباي في العام 1967 و1968 وكأنني كنت منفية بعيداً عن العالم الحقيقي. فقد كانت شقة جدي وجدتي في ضاحية جوهو، تخلو من جهاز تلفاز بالرغم من أنها محاطة بمنازل نجوم بوليوود. وكان هناك عبر الطريق الرئيس قرب المبنى الطابقي حي شعبي فقير قذر، تنبعث منه روائح كريهة. وكان الشيء الوحيد الذي يخفف من الحر الذي كان يفقدك القدرة على الحركة أن تجلس تحت مروحة تتحرك محدثة ضجة حادة. كان كل شيء مختلفاً: الطعام واللغة والمناخ والقواعد المتعلقة بما يمكن ارتداؤه وما لا يمكن ارتداؤه، ما يمكن أن يقال وما لا يمكن أن يقال. لم تكن هناك من خصوصية، فمنذ الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من الليل كنت أستطيع أن أسمع ربات بيوت الحي من الجيران وهن يخبطن القدور، وأواني المطبخ، والأهالي يصرخون في وجوه أولادهم، وأغاني الأفلام الهندية وهي تصدح، وراكبي الدراجات، وهم يقرعون أجراسهم الصغيرة.

وجاء بائع الحليب في الصباح ومعه بقرته. وأحضرت جدتي أو إحدى عماتي وعاءً من النحاس ووضعته على الأرض، فجلس البائع القرفصاء إلى جانب البقرة، وأرسل دفقات من الحليب الدافئ داخل الوعاء. وقد تعلَّمت أن أبقى عيناً ثاقبة على بائع الحليب؛ لأتأكد من أنه لم يكن يضيف الماء إلى الحليب عبر أنبوب مخفي بشكل جيد. وأخذنا الحليب إلى الطابق العلوي وقمنا بغليه. وبينما كنت أحتسي الحليب الساخن المخلوط بمسحوق الشوكولاته المدعم بالفيتامينات المسمى Ovaltine، كنت أحلم بأنني أجرجر أصابعي عبر المزيج المكثف على الجزء الخارجي من كوب طويل من الحليب البارد.

يعيش عمي وعمتي حالياً في غورغاون Gurgaon وهي ضاحية مزدهرة تقع جنوب مدينة نيودلهي. وهما يمتلكان ثلاجتين ويشتريان الحليب المعقم في أكياس بلاستيكية مختومة، وهناك شاشة تلفازية مسطحة كبيرة موصولة بالقمر الصناعي تقدم المئات من القنوات الهندية والأجنبية في غرفة معيشتهما، كما أنهما على تواصل مع الأسرة الموزعة في العالم عبر البريد الإلكتروني والهاتف. وتحافظ مكيِّفات الهواء الموجودة في غرف النوم على بقاء

الشقة في جو منعش لطيف مع برودة معتدلة. وهناك سيارة صالون من طراز حديث من نوع هوندا بأربعة أبواب متوقفة في مرأب في الأسفل.

ومن شرفة سطح شقة عمي وعمتي، يمكنني أن أشاهد مبانيَ ترتفع في كل مكان، والأغطية الصغيرة المصنوعة من القماش المشمع الواقي من المطر التي يستخدمها عمال البناء من المهاجرين، التي تتناثر في قطع الأرض الشاغرة، والنسوة اللواتي يرتدين تنانير مزمومة بالكامل أو جزءاً من زي الساري الهندي، وقد انسال عليهن، والأذرع مغطاة بالأساور حتى أكتافهن، ينقلن كميات كبيرة من مادة الإسمنت المخلوطة حديثاً في سلات على رؤوسهن إلى الرجال، الذين ينقلون الحِمل فوق رؤوسهم قبل أن يتسلقوا بصعوبة وهم حفاة الأقدام أعمدة السقالة المتداعية الأوصال لتسليم الكتلة المبتلة. ويركض طفل قرب الأغطية متحمساً بمحاذاة إطار سيارة قديم يدفعه أمامه بعصا. ويرتفع وراءه مشهد برج يضم مكاتب مصرف «سيتي بانك».

وفي رحلة قمت بها مؤخراً إلى الهند، جلست في مطار بومباي المحلي الجديد في انتظار رحلة شركة «كينغ فيشر» للطيران، التي ترفع شعار «سافر في طيران الأوقات الممتعة» وقد ارتكز حاسوبي المحمول على ركبتيَّ. وقمت بإدخال الرقم السري من البطاقة التي كنت قد اشتريتها للتو من كشك تابع لشركة «تاتا إنديكوم»، وحصلت على الفور على اتصال لا سلكي قوي. وكنت قد مررت في طريقي من شقة الأسرة القديمة في جوهو، بمجموعات بائسة من الأسر المحتاجة، التي تعيش في فقر مدقع، وقد التمَّتْ مع بعضها تحت جسر علوي لطريق عام سريع لم ينتهِ العمل منه بعد، وفوق حصائر رقيقة من القطن المتسخ، ومن حولها أطفال صغار عراة، أنوفهم مغطاة بالمخاط. كان ذاك من نوعية المشهد الرديء، الذي يصدم على نحو عميق الأشخاص الذين يقومون بأول زيارة لهم إلى الهند، وهو المشهد الذي لم أكف عن التأثر لدى رؤيته.

وفي أثناء قيامي بتفقد بريدي الإلكتروني في محطة المغادرة المتوهجة بين رجال الأعمال الهنود والأجانب والعائلات التي كانت في انتظار إحدى الرحلات الجوية العديدة المتجهة إلى كل جزء من البلاد، فكرت في الهند التي عشت فيها منذ أربعين عاماً والهند في الوقت الحاضر، وتساءلت: أين ستكون الهند بعد أربعين عاماً من الآن؟

«إلى أين نتجه مع ملياراتنا من السكان؟ هذا هو السؤال الذي تطرحه الهند على نفسها»، وقد قال لي صديق، ونحن نحتسي شراباً في نيودلهي: إنه سؤال يجب على العالم بأجمعه أن يطرحه.

إن نصف أفراد أسرتي من الهنود. وفي أثناء معظم سنيّ عمري، تغيرَّت الهند، ولكنها فعلت ذلك بشكل طفيف تقريباً دون إدراك، ثم، وفجأة، بدأت التغييرات تحدث بسرعة تسبّب لك الدّوار. وشعرت مع كل وصول بأنني أشاهد تصويراً فوتوغرافياً لانقضاء الوقت. لم يمر أي نظام ديمقراطي في التاريخ بعملية تحول مماثلة لضخامة ولأهمية عملية تحول الهند أو تسارعها.

وفي سفري في طول البلاد وعرضها، كنت شاهدة على صناعة التحول الذي لا يصدق، والذي طرأ على شكل الهند وخصائصها. وقمت بإجراء مقابلات مع المئات من الناس، الذين شاركوني رؤاهم لمستقبل البلاد، وكان معظمها طوباوي، مثالي؛ وبعضها مقلق. وتحدثت إلى الناس العاملين في المؤسسات الثقافية، الذين كانوا يعيدون تخيل سير وأحداث الهند القديمة من أجل جمهور عالمي جديد. والتقيت برجال أعمال يتفانون من أجل شمول الفقراء بالاقتصاد المنتعش للهند، حتى فيما هم يقودون شركاتهم إلى العالمية. وأصغيت إلى الخدم الذين يعملون في المنازل وسائقي سيارات الأجرة، والمزارعين والبائعين المتجولين، وهم يتحدثون عن صراعاتهم اليومية، وعن إحباطاتهم، وعن إيمانهم بأن حياة أولادهم سوف تكون أفضل. وقد صعقت في كل مكان، بالكبرياء، والتفاؤل، والإحساس بأن هذه اللحظة هي ملك للهند. ولاح لي مستقبل الهند، إمكانياته ومخاطره، ورأيت في ذاك المستقبل، مستقبلنا نحن؛ لأن مصير العالم من مصير الهند.

نموذج مصغر للعالم

ليس هنالك من بلد آخر يشكل أهمية بالنسبة لمستقبل كوكبنا أكثر من الهند. وليس هنالك من تحدٍ نواجهه، ولا مسافة نتوق إلى الحصول عليها لا يكون للهند فيها صلة مهمة بالموضوع. وتمثل الهند بدءاً من مكافحة الإرهاب العالمي إلى إيجاد العلاج للأوبئة الخطيرة المتفشية في العالم، ومن التعامل مع أزمة الطاقة إلى تفادي اسوأ السيناريوهات عن الاحتباس الحراري في العالم، ومن العمل على إعادة التوازن ما بين الحالات الصارخة من الإجحاف

وانعدام المساواة التي تعم العالم إلى الحث على الابتكار الحيوي اللازم لإيجاد وظائف وتحسين ظروف المعيشة – تمثل الهند اليوم لاعباً محورياً. إن العالم يخضع لعملية إعادة تقويم جدية للمعايير وتحديد مستويات وقدرات جديدة حيث تشكل نهضة قارة آسية أكثر العوامل أهمية في هذا الإطار. وتحمل الهند بيدها المفتاح إلى هذا العالم الجديد.

وتشكل الهند في الوقت نفسه حضارة آسيوية قديمة، وأمة حديثة متأصلة في القيم التنويرية، والمؤسسات الديمقراطية وفي قوة صاعدة متنامية في القرن الحادي والعشرين. وبتعداد سكاني يبلغ 1.2 مليار نسمة، فإن الهند تعد أكبر نظام ديمقراطي في العالم. إنها مجتمع مفتوح نشط ينبض بالحياة. ويضم النسيج السكاني المتنوع في الهند: الهندوس والمسلمين والسيخ والمسيحيين والبوذيين واليانيين والزرادشتيين واليهود وأتباع مذهب «الأرواحية»، الذي يقول بوجود روح لكل شيء في الكون، وهناك اثنتان وعشرون لغة رسمية في الهند. ويتكلم ثلاث مئة وخمسون مليون هندي اللغة الإنكليزية.

الهند هي نموذج مصغر للعالم . وتشمل جغرافيتها كل مناخ، من جبال الهملايا المغطاة بالثلوج إلى الشواطئ التي تنمو عند أطرافها أشجار النخيل، وإلى الصحارى، حيث تجول جماعات البدو الرُّحل والجمال. الهند دولة نامية مقسمة بين أقلية غنية صغيرة، وطبقة وسطى صاعدة، وثمانمئة مليون شخص يعيشون على أقل من دولارين في اليوم. وتواجه الهند جميع المشكلات الخطيرة لعصرنا – عدم تكافؤ اجتماعي شديد، عدم توافر ضمان وظيفي، أزمة طاقة متفاقمة، نقص حاد في المياه، بيئة متدهورة، احتباس حراري، وباء الإيدز المتفشي، هجمات الإرهابيين – على نطاق يفوق الخيال.

إن هدف الهند هو هدف مثير ورائع في مجاله ومداه: تحويل دولة نامية تضم أكثر من مليار شخص إلى دولة متقدمة وزعيمة عالمية بحلول العام 2020، وتحقيق ذلك بوصفه نظاماً ديمقراطياً في حقبة تشهد ندرة في الموارد وتدهوراً بيئياً. إنّ على العالم أن يمضي في تشجيع الهند. فإن فشلت الهند في تحقيق هدفها فإن ذلك يطرح خطراً حقيقياً يجعل عالمنا رهينة للفوضى السياسية، وللحرب الدائرة حول الموارد الآخذة في النضوب تدريجياً، والبيئة المسمومة، والأمراض المتفشية بسرعة هائلة. وسوف تقوم الجيوب الثرية بتوظيف الشركات الخاصة لتأمين حاجاتها والاستعانة بالميليشيات الخاصة لحمايتها من الفقراء الذين

يحتشدون عند أبوابها. ولكن إذا ما نجحت الهند، فإنها سوف تثبت أنه بالإمكان انتشال مئات الملايين من الأشخاص من براثن الفقر. وسوف تثبت أيضاً أن النظام الديمقراطي متعدد الأعراق، المتعدد الديانات ليس من أمور الترف والرفاهية المقتصرة على المجتمعات الغنية. وسوف ترينا كيف ننقذ بيئتنا، وكيف ندبر أمورنا في عالم نزق مشاكس متعدد الأقطاب. إن خطوة البداية التي تقوم بها الهند هي بحق مغامرة القرن.

بحثاً عن نموذج جديد

«إن التحدي الأكبر الذي يواجهنا هو تحدٍ لم يجد له أحد حلاً في العالم: فنحن لم نعمل على تنمية العدالة والإنصاف. هذا ما قاله لي موكيش آمباني رئيس مؤسسة ريلاينس الصناعية، أكبر شركة في الهند. هل يمكن للأنظمة الديمقراطية الليبرالية أن تشكل اقتصاد سوقٍ عالمياً يكون مستداماً بيئياً، ويقلص من حالات عدم إقرار المساواة؟» لقد فشلت الولايات المتحدة في تحقيق هذا الأمر. ففي حين أنها كانت قد أثبتت مقدرتها على توليد ثروة واسعة، فإن ما يسمى بإجماع واشنطن قد قدم مصالح الشركات التجارية على مصالح المواطن العادي والمهن التجارية الصغيرة، وتسبب في توسيع الهوة ما بين الغني والفقير، وأدار أعماله من دون أي اكتراث للبيئة وتجاهلها بشكل هائل. ويعتمد ازدهار أمريكة على زيادة استهلاك موارد العالم - فبتعداد يبلغ ستة بالمئة فقط من تعداد السكان في العالم تستهلك الولايات المتحدة ثلاثين بالمئة من موارد كوكب الأرض. وهي تنتج حصة غير متكافئة -25 بالمئة- من الغازات الخطيرة التي تطلقها البيوت الزراعية البلاستيكية.

وتواجه الهيمنة الأمريكية التكنولوجية، والاقتصادية، والإستراتيجية موقفاً معارضاً للمرة الأولى منذ سقوط الاتحاد السوفيتي. ومن السخرية بمكان أن وسائل الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات التي دفعت أمريكة إلى المقدمة في أعوام التسعينيات من القرن الماضي تسهم الآن في تداعي الهيمنة الأمريكية ذاتها. فوسائل التكنولوجيا هذه أوجدت عالماً يتم فيه ضغط الوقت والمكان بصورة لم يسبق لها مثيل، حيث تكون الأفكار، والأموال، والخدمات والناس في حركة مستمرة متحررة من قيود الحدود القومية.

وقد أنشأت عملية العولمة التي حفزتها هذه الابتكارات التكنولوجية ما يسميه الاقتصادي أمارتيا سين Amartya Sen «عصراً من البحبوحة الهائلة» يجري فيه تكديس المليارات من الدولارات من قبل القلَّة، في حين بالكاد يتمكن المليارات من الناس من تحقيق النجاح والتوفيق في حياتهم. ومع بروز النهضة السريعة للصين من جهة، والتهديدات الإرهابية الجديدة من جهة أخرى فإن أحد الأسئلة الملحة فعلاً بالنسبة لعصرنا هي هل بإمكان الأنظمة الديمقراطية الليبرالية أن تقدم إلى المواطنين جميعهم، بمن فيهم الفقراء، الحرية لإدراك إمكاناتهم وقدراتهم البشرية.

إن تفاؤل أمريكة الذي لا يمكن كبته، واعتقادها بأنه يمكن للحياة أن تتحسن في النهاية، قد تضاءل في ظل الصورة المقيتة لحربها على الإرهاب، والفشل الذريع في العراق والاقتصاد العالمي المتحول. واستناداً إلى البحث الذي أجرته مؤسسة Pew Global Attitudes، فإن الرأي العام العالمي ينظر إلى الولايات المتحدة نظرة سيئة بصورة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. وحتى في الهند حيث استمرت الولايات المتحدة في أن تحظى باحترام بالغ وعلى نحو يصيبك بالدوار بعد مدة طويلة من إنهيارها في مكان آخر، فقد انخفضت نسبة الرأي الإيجابي تجاهها بشكل مفاجيء من 71 بالمئة من الذين أبدوا موافقتهم على السياسة التي تنتهجها في عام 2003 إلى 56 بالمئة في عام 2006[1]. ويشعر الأمريكيون أنفسهم بأمان أقل وبثقة أقل بشأن مستقبلهم.

تدرك الهند والصين أنهما لا تستطيعان تقليد النموذج الأمريكي بشكل أعمى: فالأرض لا يمكنها ببساطة أن تتحمل الملايين من الأشخاص ممن يقومون باستهلاك موارد محدودة وفق المستويات الأمريكية، ولا إنتاج كميات كبيرة من الملوثات وفق المعدل الذي يحققه الأمريكيون. وليس بإمكان الغالبية العظمى من الناس في العالم أن تتحمل دفع التكاليف التي يُطلب من الأمريكيين أن يدفعوها من أجل تأسيس حياة كريمة: رعاية صحية متميزة وتعليم متميز. ولا يمكن للهند ولا الصين وهما تعانيان سلفاً غياب المساواة بشدة وأزماتٍ بيئيةً وصحيةً رهيبةً، لا يمكنهما أن يسمحا لجزء صغير من شعبيهما أن يعيش حياة على النمط الأمريكي.

لقد حققت أوروبة توازناً أفضل ما بين الرخاء والإنصاف، حيث وجهت بالاستفادة من الموارد المهمة بغرض تأمين رعاية صحية عالمية، مساكن بأسعار معقولة، معالجة أزمة البطالة، وغيرها من المنافع للمواطنين العاديين. وقد نشأ الاتحاد الأوروبي باعتباره الكيان السياسي والاقتصادي القومي الخارق والأول في العالم، واضعاً وراءه نهائياً وبشكل حازم وتام قروناً من العداء بين القوميات والميراث الرهيب لحربين عالميتين شهدهما القرن العشرون. إلا أن أوروبة تكافح أيضاً تفشي بطالة حادة فيها وتواجه التحدي الذي يطرحه دمج الأعداد المتزايدة من المهاجرين المسلمين.

وقامت روسية، وتحت نظام حكم فلاديمير بوتين، بسحق الأصوات المعارضة، وابتعدت عن المجتمع المفتوح الذي كانت قد أقبلت عليه بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. وتعد اليابان على قدر كبير من التجانس ثقافياً وحضارياً، لكي تعمل كنموذج لبقية العالم؛ وقد تحركت مؤخراً باتجاه الطرف اليميني جداً لمجالها السياسي مع صدور دعوات لنشر ثقافة قومية وعسكرية متطورة تماماً ومتجددة، تتجنب التطرق إلى سلوك اليابان في زمن الحرب. ويضمن الحجم المطلق للصين أنه سيكون لها تأثير كبير على النظام العالمي في حين ينمو اقتصادها، ولكن النظام الصيني لا يشعر بالراحة في الجلوس مع تلك الدول التي تقدر الديمقراطية، وحرية التعبير، والصحافة النابضة بالحياة.

والهند بمجتمعها المفتوح واقتصادها الفاعل والنشط، والتزامها بدمقرطة مؤسسات النظام العالمي وإيجاد الثروة بطريقة تكون شاملة ومستدامة، تقوم بتكوين نموذج بديل ومقنع بشكل لا يقاوم.

القرن الآسيوي

قال رئيس الوزراء الهندي سينغ لرئيس الوزراء الصيني وين جياباو عندما زار نيودلهي في عام 2005، «إن بإمكان الهند والصين أن يعملا معاً على إعادة تحديد شكل النظام العالمي». ويوجد هناك فيما بينهما ثلث البشرية، حيث يبلغ تعداد سكان الهند والصين 2.4 مليار نسمة. ويعد اقتصاد الهند، أسرع ثاني اقتصاد نامٍ بعد الصين مسجلاً معدل نمو سنوي يبلغ ثمانية بالمئة في عام 2006، مع طموح بالمحافظة على نسبة النمو بمعدل تسعة إلى

عشرة بالمئة أثناء السنوات الخمس القادمة وما بعدها. وقد تقبلت الهند مثلها مثل الصين سياسة اقتصاد السوق، وتقدمت لتجني فوائد العولمة. وترى كل من الهند والصين في هذه اللحظة نقطة تحول تاريخية ينجذب فيها المستقبل نحو قارة آسية، وهما ينظران إلى القرن الحادي والعشرين بوصفه القرن الآسيوي، وهو عصر ستفسح فيه المؤسسات التي أقامت النظام العالمي بعد الحرب العالمية الثانية، المجال أمام إطار جديد من العمل قائم على تحالفات جديدة وعلى توازن جديد للقوة.

وتعمل الهند والصين على حل النزاع الحدودي بينهما الذي لطالما تسبب في إفساد العلاقات الثنائية منذ أن وقعت الحرب بين البلدين في عام 1962. وقد كانت الهند ومنذ زمن طويل لا تثق في علاقة الصين الوثيقة بباكستان، لا سيما مسألة حصولها على وسائل التكنولوجيا ذات الصلة بالأسلحة النووية، إلا أن الهند وضعت مسألة حذَرَها هذا جانباً من أجل تحقيق تقدم في علاقتها مع الصين. ويرتفع المعدل التجاري القائم بين الصين والهند أكثر من أربعين بالمئة في السنة. وفي عام 2007، سوف تحل الصين محل الولايات المتحدة بوصفها أكبر شريك تجاري لدولة بمفردها مع الهند. وتدرك الهند والصين أنهما تواجهان تحديات مشتركة، تتمثل في الفقر المتفشي على نطاق واسع، وفوارق اجتماعية متزايدة بين المدن والأرياف، وتدهوراً بيئياً، واحتياجات متسارعة للطاقة من أجل المليارات من الناس. وتعرف كلتاهما أن أياً من هذه المشكلات قد يحد من زخم قدرتهما المثيرة للإعجاب على تحقيق المزيد من النجاحات، وأن يوقع بلديهما في حالة من عدم الاستقرار على الصعيد المحلي أو يورطهما في نزاع إقليمي.

وتدرك الهند والصين في الوقت ذاته أنه في السباق لتأمين الموارد الطبيعية الأساسية ولا سيما النفط والغاز الخام، ولتأكيد النفوذ في الدول المجاورة التي تربطهما بها حدود مشتركة، فإنهما تعدَّان دولتين متنافستين. ولكن حتى وإن تمكنت الصين وإلى الأبد من التفوق على الهند بالقوة الاقتصادية والقوة العسكرية المطلقة، فإنها لن تكون قادرة أبداً على أن تضاهي الميزة الهائلة للهند بوصفها نظاماً ديمقراطياً.

تشكل ديمقراطية الهند مدخلاً رائعاً إلى قوة معتدلة وصمام أمان طبيعياً لإحباطات مواطنيها. وتتقدم الهند في هذا العالم الهش والمتغير بسرعة بوصفها صديقاً للقوى

العظمى وصديقاً للدول النامية، ومصدراً عالمياً للإبداع الثقافي والابتكار التكنولوجي، ومجتمعاً مفتوحاً.

الهند الشابة

الهند هي الدولة الأكثر شباباً في العالم. فخمسون بالمئة من شعب الهند هم تحت سن الخامسة والعشرين. وبحلول العام 2015. سوف يكون هنالك 550 مليونا ونصف المليون مراهقٍ في الهند. وبعد مرور وقت طويل من وصول شعوب أوروبة، والولايات المتحدة، وحتى الصين إلى عمر الشيخوخة فسوف تظل الهند مع ذلك دولة شابة من دون أي نقص في الأيدي العاملة ولا غياب للزبائن. وقد عززت صناعة تكنولوجيا المعلومات في الهند ودورها كمزود عالمي للخدمات من الوضع المزدهر للبلاد. فالتصنيع يتقدم فيها بسرعة في حين بدأ محركه الاقتصادي الحقيقي، الإنفاق بالمفرق، بدأ للتو بالتهيؤ للانطلاق. ومدعوماً بنمو اقتصادي قوي، وضروب متعددة من السلع الاستهلاكية والخيارات الترفيهية، فإن شباب الهند تملؤهم ثقة قوية جديدة تستند إلى توقعات وآمال عريضة، وهم يؤمنون بأن المستقبل هو ملك لهم.

لقد اجتاحت البلاد روح معنوية عالية وعزيمة قوية ترى أن إنجاز الأعمال أمر ممكن، فألهبت مخيلة الهند. وهنالك شعار اعتمدته إحدى شركات الطيران الخاصة الكثيرة والحديثة في الهند، التي تعرض أسعاراً مخفضة واسمها «ايرديكان» يلائم هذا الجو العام بالتأكيد، وهو: «في كل مرة نقلع فيها ينظر الاقتصاد بأكمله إلى الأعلى»، أي إن الاقتصاد بأكمله يتحسن.

غوبال هو سائق سيارة أجرة من مدينة بنغالور يبلغ الثامنة والأربعين من العمر، وهو فخور جداً بابنته وعمرها سبعة عشر عاماً، فهي طالبة لامعة ممتازة. وهو يريد منها أن تحصل على وظيفة في مؤسسة صناعة تكنولوجيا المعلومات في بنغالور. وقد مضى عليه في العمل سائقاً أكثر من عشرين عاماً، وهو يمتلك السيارة التي يقودها ستة أيام في الأسبوع، ولمدة اثنتي عشرة ساعة يومياً لتحصيل رزقه. وقد سألته عندما كنا معاً في يومنا الثالث: «ما هو رأيك بمستقبل الهند؟»

«رائع جداً. سوف تصبح الهند الرقم واحد». قالها وهو يدير رأسه كاشفاً عن ابتسامة عريضة، مما أوقع في نفسي الفزع الشديد، وجعلني أرتاع لأنه لم يعد ينظر أمامه إلى الطريق المزدحم .

وتقول لي دورجاڤاتي اوباديهاي وهي طالبة جامعية في التاسعة عشرة من عمرها من مدينة بومباي: «أنت تدركين أن أمريكة في حالة انهيار، أما الهند فهي في حالة تقدم. أنتم أيها الناس لن يعجبكم ذلك الأمر. لكنه واقع». تقولها وقد رفعت رأسها في حركة رصينة ومتحدية في آن واحد. وهي تعيش في إحدى الأحياء العشوائية الفقيرة لمدينة بومباي. وقد أيد والدها، وهو سائق سيارة أجرة، رغبتها في الدراسة في الجامعة على الرغم من اعتراضات أمها.

ويعمل بهافيش بافيشي في بيع قطع غيار للسيارات في مدينة آكولا بولاية ماهاراشترا. ويقول الزوج والأب البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً: «إن الهند قادمة. بإمكانك أن ترينها. إننا نشعر بفخر شديد. لقد أبلينا بلاء حسناً جداً. وسوف يقوم والدايَ: بإنجاز العمل على نحو أفضل. وتومئ بقية أفراد العائلة الموزعة هنا وهناك برؤوسها علامة الموافقة.

ويقول لي ناندان نايلكاني، المدير التنفيذي المسؤول لشركة انفوسيس Infosys، الشركة الهندية الرائدة في مجال تكنولوجيا المعلومات، يقول لي وهو جالس في مكتبه في مدينة بنغالور: «إن الناس يرون الضوء في نهاية النفق. أخيراً سوف نتحرر من هذا الفخ. فهناك شعور بأن مستقبلنا يمكن أن يكون أفضل بالنسبة لأولادنا أكثر منه بالنسبة لنا، وقد جعلنا ذلك نبذل طاقة كبيرة للتوصل إلى كيفية حل المشكلات».

يعد نايلكاني شخصية أسطورية في الطفرة التكنولوجية التي حققتها الهند ورجلاً مشهوراً عالمياً بفضل دوره المعروف في إعطاء توم فريدمان فكرة تأليف كتابه الرائج جداً «العالم مسطح»، ويتألق وجه نايلكاني بشكل واضح عندما يبدأ بالحديث عن شركته. «ترمز انفوسيس إلى لحظة الإمكانية هذه بالنسبة للهند؛ نحن لدينا ستة وستون ألف موظف

ومتوسط أعمارهم هو سبعة وعشرون. إن الأمر يتعلق بتأسيس علامة تجارية عالمية. إنه يتعلق بتحقيق إنجازات حسب الميزة والجدارة. إنها شركة تتعلق بالمستقبل وليس بالماضي.

التقدم بخُطا واسعة على الساحة العالمية

وصف المدير التنفيذي السابق لشركة «ارسيلور» Arcelor، وهو فرنسي الجنسية غاي دولي، العرض المقدم من قبل شركة الحديد الصلب الهندية «ميتال ستيل» Metal Steel إلى شركة الحديد الصلب الأوروبية العملاقة بأنه عرض «لشركة مليئة بالهنود تدفع نقود الغش والاحتيال». ففي شهر حزيران من عام 2006، وبعد شهور من الجدال اللافت للأنظار – وبعد تدخل حكومة الهند على نحو مستغرب للدفاع عن ابن ينتمي إليها يعيش في لندن، ويمتلك شركة مسجلة في لوكسمبورغ، ولم يكن، قد استثمر أمواله أبداً في بلده الأم في تلك المرحلة – نجحت «ميتال ستيل» في الاستيلاء على «أرسيلور». فعمت الفرحة قلوب الهنود في أرجاء العالم.

كان استيلاء «ميتال» على شركة «أرسيلور» يرمز، بالنسبة للهنود، إلى مجيء عصر المؤسسات التجارية الهندية ونهاية امبرطورية تجارية غربية. وحتى مجيء شركة «ميتال»، كانت المخاوف الفرنسية بشأن العولمة تتجسد في صورة السبّاك البولندي المستعد للعمل بأجور أقل جداً من الأجور المعتمدة وفق المقاييس الفرنسية. وقد أثبتت الشركة الهندية الغازية أنها تجسد فكرة أكثر إثارة للفزع . فعلى الرغم من صدور تأكيدات عن «ميتال» بأنه لن يكون هناك من تسريح جماعي للعمال في شركة «أرسيلور»، وحيث تشكل حزم المنافع والأجور السخية كل شيء يخشى الفرنسيون أن يخسروه، فإن الكثيرين من الفرنسيين لم يتمكنوا من تخفيف الانطباع بأنهم سوف يدعون الثعلب يدخل خُمّ الدجاج.

بعد وقت قصير من الانقلاب الذي أحدثته شركة «ميتال ستيل» قام فيجاي موليا من الشركة المتحدة لمصانع الجعة في الهند بالسعي لامتلاك شركة تايتينغر للشمبانيا. فقال: الفرنسيون Assez «كفى». وتفوقت «مصالح محلية» غير محددة على العروض التنافسية، وسحب موليا عرضه. فالحديد هو أحد الأمور، والشمبانيا أمر آخر مختلف جداً!

كانت الشركات الهندية تعمل بهدوء لتملك شركات موجودة في أنحاء العالم، بما فيها شركات في أوروبة والولايات المتحدة. ويمتلك بهارات فورغ شركات في السويد وألمانية و المملكة المتحدة والولايات المتحدة والصين. وتقوم شركة انفوسيس «Infosys» بتوسيع عملياتها في الصين، والولايات المتحدة وأوروبة. وسارعت الشركة العملاقة لصناعة الطاقة الهوائية «سوزلون» إلى شراء شركات في أوروبة والولايات المتحدة بعروض رخيصة، واستثمرت أموالها في مجموعة من طواحين الهواء في ولاية مينيسوتا لتوليد الكهرباء. وفي عام2005، امتلكت «شركة ويبرو» Wipro الهندية الرائدة في تكنولوجيا المعلومات، شركة New Logic «نيولوجيك»، وهي شركة تصنّع الرقاقات بالغة الصغر التي تدخل في صناعة وسائل اتصالات الهاتف الخليوي، ومقرها المركز الفرنسي للتكنولوجيا المتقدمة في صوفيا – انتبوليس.

وإن هي إلا أشهر من استملاك شركة ميتال لشركة ارسيلور، حتى قامت الشركة العملاقة لصناعة الفولاذ في الهند «تاتا» Tata بإتمام صفقة لشراء حصة المؤسسة الصناعية الانكلو هولندية للفولاذ «كوروس» Corus مقابل 8.1 مليارات دولار نقداً بالتمام والكمال. و دون أن تواجه أي صعوبات. وتجني شركة تاتا للمشروبات، وشاي تاتا (Tata Tea) أكثر من ثلثي عائداتها من الأسواق المهمة في العالم. وقد دأبت شركة Tata Tea على امتلاك شركات مشروبات أوروبية وأمريكية بشكل منهجي بدءاً بشركة «تيتلي» Tetley ومقرها المملكة المتحدة وذلك في عام 2000، واستمرت مع شركة الشاي الأمريكية «غود ايرث» Good Earth في عام 2005. وفي عام 2006، اشترت «تاتا» الشركة الأمريكية رفيعة المستوى «إيت اوكلوك كوفي»، Eight O'clock Coffee والشركة التشيكية «جيمكا» JEMCA؛ وحصلت على ثلاثين بالمئة من حصة شركة «أميركان غلاسو» American Glaceau للمياه المنكهة.

وتقوم الشركات الهندية التي تتوسع خارج البلاد بالتعاقد مع مديرين وموظفين محليين. ولدى شركة «تاتا» للاستشارات وحدها تسعة آلاف وخمسمئة موظف في الولايات المتحدة. وأعلنت في عام 2006، عن خطط لاستخدام ألف آخرين من الموظفين من الولايات المتحدة. وكانت شركة ماهيندرا وماهيندرا Mahindra & Mahindra تقوم بتصنيع الجرارات في مدينتي تومبول، وتكساس بإشراف فرع الشركة في الولايات المتحدة Mahindra U.S.A، وذلك منذ عام 1994، وفي عام 2003، دشنت مصنعاً جديداً قرب مدينة أتلنتا بولاية

جورجيا. ويعمل لدى شركة المختبرات الطبية «رانباكسي» Laboratories Ranbaxy، وهي شركة مستحضرات صيدلانية هندية رائدة، تسعة آلاف موظف في سبعة عشر بلداً.

قدمت في العام الماضي عرضاً عن الهند أمام الصف السادس الذي يضم ابنتي بين طلابه. وقلت لهم: إنه سيكون هنالك احتمال كبير أمامهم عندما يكبرون أن يعملوا لصالح شركة صينية أو هندية. ولم يبدُ أن هذا قد أزعجهم إطلاقاً. فالأمريكيون الذين كانوا يخشون من ترحيل أعمالهم خارج بلادهم إلى الهند ربما يجدون فرصاً جديدة بالعمل لصالح شركات هندية. وسوف يجد الأوروبيون أنفسهم في وضع مماثل على نحو متزايد. وكان تي.سي. رامادوري رئيس مجلس إدارة شركة «تاتا» للخدمات الاستشارية (TCS) قد قال لي في غرفة المعيشة في منزله القائم عند واجهة وورلي البحرية في بومباي: «لقد كان لدى قارة آسية دور قيادي عالمي امتد آلاف السنين، ثم تحول الدور إلى أوروبة ثم إلى أمريكة، وهو الآن يعود ثانية إلى آسية. وسيكون صعباً على الولايات المتحدة، وعلى أوروبة القبول بحقيقة أن آسية، ومن ضمنها الهند والصين، ومن الناحية الثانية أيضاً ماليزية، وسنغافورة، ودول أخرى، سوف تكون مركز تحقيق الثراء».

الثورة الصناعية الثالثة

قال لي عظيم بريمجي الموظف التنفيذي المسؤول لشركة ويبرو إحدى أكبر الشركات الهندية المشاركة في تنفيذ عقود وادارة نشاطات اقتصادية في الخارج، قال لي وهو يتحدث في مقر شركته في بنغالور: «أي عمل تجاري لا يتطلب حضوراً شخصياً يمكن أن يكون له مصدر مشترك. لقد أصبحت الهند مصدراً رئيساً للعمالة الماهرة بتكاليف قليلة، مع وجود فئة من العاملين الذين يتكلمون اللغة الإنكليزية، ويتمتعون بمهارات عالية، ويستطيعون أن ينافسوا أفضل الخبرات ولا سيّما في مجال التكنولوجيا والعلوم، مقابل جزء زهيد مما يدفع لنظرائهم من العمال في الولايات المتحدة أو أوروبة.

وقد أبلغتني كيران مازومدار شو الموظفة التنفيذية المسؤولة لشركة «بيوكون» Biocon الشركة الهندية الرائدة في مجال التكنولوجيا الحيوية، وإحدى أكثر النساء شهرة في مجال الإدارة التنفيذية في الهند: إن الهند تملك الإمكانية؛ لأن تكون مختبر العالم. فنحن لدينا

عقول ذكية وميزة التكاليف المواتية. نحن ننكبّ على تلبية الحاجات الطبية للعالم، ونقول: «عليكم أن تصنّعوا أدوية يمكن تحمل دفع ثمنها. إن إنفاق مبلغ 2.5 مليار دولار ونصف المليار على تكاليف إنتاج دواء واحد ليس بالأمر المقبول».

وتغدو الهند مركزاً مهماً للبحوث العلمية والتنموية بالنسبة لأعداد كثيرة من الشركات الرئيسة متعددة الجنسيات. فقد وظفت شركة IBM حالياً 43,000 شخصٍ في الهند من أصل 330,000 ينتشرون في أنحاء العالم. وسوف تستثمر شركة «انتيل» Intel مليار دولار في الهند للسنوات الخمس القادمة. أما شركة «سيسكو» Cisco، فتستثمر (1.1) مليار دولار آخرين. وستستثمر شركة «مايكروسوفت» (Microsoft 1.7) مليار دولار وتستخدم للعمل 3,000 موظفٍ إضافي[2].

ويتوقع أن تزداد نسبة الوظائف في قطاعات التمويل المالي، التكنولوجيا، علوم الحياة، إدارة الموارد البشرية، وإدارة الأعمال التي يتم فيها استقدام كوادر مؤهلة من أوروبة، وأمريكة إلى دول العالم النامي، من مستواها الحالي البالغ أقل من (5) بالمئة إلى (30) بالمئة بحلول عام 2015[3]. وبحلول العام ذاته سوف يتم استقدام ما يقدر بـ (3.5) مليون شخص من فئات موظفي المكاتب والمدرسين من الولايات المتحدة إلى جانب تخصيص (151) مليار دولار من الرواتب للعقود الخارجية مع كون الهند وجهة الاستقدام بالدرجة الأولى[4].

إن الاقتصاد العالمي يخضع لعملية إعادة تنظيم كبرى تعمل على تحقيق إعادة التوازن في الوظائف واستثمار رأس المال باتجاه قارة آسية. وقد أوجدت وسائل تكنولوجيا المعلومات والاتصالات محيطاً تكون فيه الوظائف الوحيدة التي يجب أن تظل وظائف محلية هي تلك التي تتطلب تفاعلاً مباشراً ووجهاً لوجه بين المتعاملين. ويمكن بالنسبة لجميع الوظائف الأخرى استقدام عمال من الخارج لأدائها في مواقع بعيدة ورفدها عن طريق تفعيل وسائل التكنولوجيا الرقمية. ويدعو آلان اس.بلايندر وهو أستاذ في الاقتصاد في جامعة برينستون، يدعو هذه بالثورة الصناعية الثالثة. وقد كانت الثورة الأولى تتمثل في تحول العمل من المزارع إلى المصانع وتجسدت الثانية في التحول من التصنيع إلى الخدمات. أما الثالثة فتتمثل في التحول الذي أمكن تحقيقه بفضل عصر المعلومات.

ويعتقد بلايندر أن الأبعاد النهائية للثورة الصناعية الثالثة «ربما مربكة». وعلى الرغم من أنه ليس ممكناً ولا مرغوباً إعادة الثورة إلى الوراء فإنني أشارك بلايندر الاعتقاد بأن الحكومات والمجتمعات في العالم المتقدم يجب أن تتصدى بشجاعة للتحديات الضخمة والمعقدة ومتعدِّدة الأوجه، التي سوف يأتي بها العمل ما وراء البحار.(5) وهي لا تفعل ذلك في هذه المرحلة. فالعمال في الولايات المتحدة الذين فقدوا وظائفهم بسبب انتقال الكثير من الأنشطة الاقتصادية إلى الخارج يُتركون بمعظمهم ليتدبروا أمورهم بأنفسهم.

ومع التزايد المطَّرد في ظائف المهارات العالية في الهند، فقد أدى نزيف الأدمغة –تدفق المواهب باتجاه الدول المتقدمة في الغرب، لا سيّما الولايات المتحدة، والذي ميِّز النصف الثاني من القرن الماضي– إلى إيجاد تيارٍ مضادٍ في هذا القرن: إعادة دوران حركة الأدمغة. وكان والدي الهندي، وهو مهندس طيران يأمل أن يعود إلى الهند بعد تخرجه في الجامعة في أمريكة، ولكن لم تكن هناك من فرص لتوافق ما كان يمكن أن يحصل عليه في الولايات المتحدة. واليوم، وبينما تتوسع الأعمال التجارية الهندية في أوروبة وتنتقل الشركات الأوروبية والأمريكية إلى الهند؛ ينمو الطلب على الهنود الذين تلقوا تعليماً غربياً والهنود من ذوي الخبرة في عالم الأعمال الدولي، وتزدهر في الهند وظائف الرواتب العالية والمجتمعات المحلية الخاصة التي تقدم مزايا مواتية طبقاً للنمط الأمريكي المتبع، ويقرر عدد متزايد من الهنود بأن الوقت قد حان للعودة إلى الوطن. ويشكل الهنود العائدون من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة تأثيراً قوياً في تحديث وطنهم الأم، حيث يطالبون بخدمات أكثر فاعلية، ويشتكون من الفساد ويجاهرون بعدم رضاهم عن البنية التحتية الرديئة.

في عام 2003، قدرت مجموعة الإندوس للاستثمارات (The Indus Entrepreneur TIE) بأن خمسة عشر ألفاً إلى عشرين ألف هندي غادروا وادي السيليكون * SiliconValley عائدين إلى بلادهم. وأبلغني أمار بابو من شركة «انتل» الهند أن نحو (15) بالمئة من موظفي الشركة في بنغالور هم من الهنود، الذين عادوا من الولايات المتحدة. والكثير من الأشخاص

* يقع في وادي سانتا كلارا شمال ولاية كاليفورنية. يضم أضخم مركز لصناعة التكنولوجيا المتقدمة وشركات تكنولوجيا المعلومات. اشتق اسمه من رقاقات السيليكون التي تستخدم في أجهزة الحاسوب. (المترجمة)

الذين يعودون من الولايات المتحدة يكونون قد تشربوا جرعة وافية من الخبرة عن طبيعة المشروعات الاستثمارية الشخصية. وهم يستخدمون قطاع المقاولات وأموالهم لإنشاء شركات وأعمال جديدة في الهند. وبعضهم يتخذ من الهند مقراً له، والبعض يبدأ بتأسيس شركات جديدة في الهند في حين يبقي على قواعده في الولايات المتحدة. وهناك آخرون غالباً ما يوجدون في الطائرة بشكل متكرر، إلى حد أنهم لم يعودوا يعرفون أين يعيشون.

عصر النهضة الهندي

لقد بدأ شعب الهند البالغ عدده 1.2 مليار نسمة وهنود الشتات المؤلفين من عشرين مليوناً بدؤوا باستعراض قدراتهم وإمكاناتهم الثقافية والاقتصادية. «من يحتاج إلى الجمهور الأمريكي؟» هذا ما سألني إياه منتج الأفلام سمريتي ماندهرا ونحن نتناول طعام الغداء في نيويورك. «هنالك ثلاثة ملايين شخص فقط هنا» ولقد أذهلتني هذه الجملة بكل تأكيد. وأنا أشك في أن الجمهور الأمريكي مع رغبته العميقة وغير المحدودة في التسلية والترفيه لن تعود له أية أهمية في أي وقت قريباً. إلا أن لدى سمريتي وجهة نظر تستحق الاهتمام: «كل شيء موجود بمقياس مختلف في بومباي أو بيجين (بكين) عنه في نيويورك أو لوس أنجلوس».

وقال لي شاراد ديفاراجان الرجل الذي جاء بالرجل العنكبوت «سبايدرمان» إلى الهند، والذي هو جزء من المشروع الجديد لشركة Virgin لمجلات الأطفال المصورة وأفلام الرسوم المتحركة: «إن السجل التاريخي لأبطال الشخصيات المصورة العظماء الذين نعرفهم ونحبهم يمتد إلى مدى خمسين عاماً. إلا أننا لدينا في الهند أبطال خارقون يعود سجلهم التاريخي إلى خمسة آلاف سنة». ويوفر التراث الثقافي الغني للهند بئراً عميقة لمادة إبداعية منها تصنع الأعمال الفنية والترفيهية من أجل الجمهور العالمي الفعلي الذي يحتل المرتبة الأولى في العالم.

وحسب رؤية شاراد وشريكه غوثام تشوبرا للوضع - وهما يستمدان الإلهام من مرشديهما المخرج السينمائي شيكار كابور والمعلم الروحي ديباك تشوبرا - فإنهما مشاركان في ما هو ليس بأقل من صناعة عصر نهضة هندية. ومثلما تم نسيان الكثير من أرقى الإنجازات

والأعمال الفنية والفلسفية في الغرب أثناء حقبة العصور الوسطى لتؤدي إعادة اكتشافها ثانية إلى إحداث تأثير جديد مذهل في عصر النهضة الإيطالية في إيطالية، فإن الهنود يعتقدون أن الفنون والفلسفة الهندية هجعت في ظلام الهيمنة الإمبريالية الغربية وما أعقبها من أحداث. «العالم بحاجة إلى أساطير جديدة» هذا ما قاله لي ديباك تشوبرا. والثقافة الهندية تمتلك جميع العناصر لتكوين واحدة.

وقال لي شاراد وغوثام كل على حدة، إنه أمر مثير جداً. فأنت تشعرين وكأنك واحدة أفراد عائلة مديتشي* Medici عندما تكونين داخل الاستديو في الهند».

إن البرهان على قيام عصر النهضة الهندية موجود في كل مكان. فالعالم تثيره ثانية الموضة الهندية والموسيقا الهندية والأزياء المستوحاة من الهند. ويظهر الممثلون الهنود على شاشة التلفزة وشاشات السينما عبر الولايات المتحدة وحول العالم. وبعد مرور أربعين عاماً على قيام فريق البيتلز بوضع الهند على خارطة الوعي الغربي، تقوم الهند بوضع الغرب ضمن تضاريس عالمية جديدة.

ويرتبط مخرجو الأفلام والمنتجون الهنود بعقود واتفاقيات مع ممثلين مخضرمين وشخصيات لها وزنها من هوليوود. وتعمل شركات الرسوم المتحركة الهندية ليس فقط على إنتاج المحتوى لصالح أكبر تكتل للشركات الإعلامية في العالم، وإنما تقوم ببناء ملكيتها الفكرية الخاصة بها. فالمشاهدون الهنود والمستهلكون الهنود أعدادهم كبيرة وبدؤوا بامتلاك النقود لشد انتباه شركات الإعلام في أنحاء العالم بينما تقوم شركات إنتاج الأعمال الترفيهية الهندية بالتوجه بموهبتهم ورؤيتهم إلى العالمية.

وكان فريق شركة «ڤيرجن كوميكس» قد تعاقد في شهر تشرين الثاني الماضي مع نجم هوليوود الكبير نيكولاس كيج ليلعب الدور الرئيسي في فيلم سينمائي مأخوذ عن روايتهم المصورة وعنوانها The Sadhu «السادو**».

* عائلة إيطالية عريقة عاشت في فلورنسا وتوسكاني بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر.

** رجل دين هندوسي يعيش حياة التقشف والبساطة. (المترجمة)

تحديات مخيفة

تعيش في الهند نسبة مذهلة تبلغ أربعين بالمئة من فقراء العالم، بمن فيهم ثلث أطفال العالم الذين يعانون من سوء التغذية. وقد أشار تقرير قدمه إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول 2006، المقرر الخاص جان زيغلر بعنوان «مدى الجوع المزمن وسوء التغذية في الهند» أشار إلى أن الجوع وسوء التغذية يشكلان مشكلتين كبيرتين في الهند في الوقت الحاضر أكثر مما كانا عليه في التسعينيات، وأن الهوة بين أولئك الذين يأكلون جيداً والذين ليس بمقدورهم الحصول على مايكفيهم من الغذاء قد اتسعت(6) . ففي بلد يفاخر بتوليه لموقع الريادة في حقل تكنولوجيا المعلومات وبنمو اقتصادي قوي، يعيش عدد مخجل من الهنود أوضاعاً ليست أفضل، وفي بعض الحالات أسوأ من الوضع في شبه الصحراء الإفريقية.

واستناداً إلى تقرير صدر العام الماضي عن اللجنة الدولية للإيدز، فإن الهند تضم أكبر عدد من السكان في العالم المصابين بفيروس «اتش.آي.ڤي» HIV المسبب لمرض الإيدز، حيث يوجد هناك أكثر من 5.7 ملايين مريض فيها، مع أن الرقم الحقيقي قد يكون أعلى كثيراً، ولا تتوافر آليات موثوقة تماماً للحصول على الأرقام الدقيقة. وهناك مجموعة من المؤسسات الخاصة تعمل مع هيئات الأمم المتحدة والبنك الدولي لمساندة الجهود التي تبذلها الحكومة الهندية لكبح تيار هذا الوباء الخطير وتقديم الرعاية والعلاج غير المكلف للضحايا. وقد أدى إنتاج الأدوية النوعية من قبل الشركات الصيدلانية الهندية إلى تخفيض تكاليف العلاج بشكل جذري، في الهند، وفي أجزاء أخرى من العالم النامي. وإن مقدرة الهند على التغلب على انتشار هذا المرض الفظيع في الوقت المناسب للحيلولة دون إلحاق ضرر كبير باقتصادها، هي مسألة مفتوحة للنقاش. وكان تقرير صدر عن المجلس القومي للبحوث الاقتصادية التطبيقية (NCAER) في عام 2006، قد حدد تكاليف مكافحة وباء الإيدز للسنوات العشر القادمة بنسبة (8.6) بالمئة من النمو الاقتصادي السنوي للهند(7) .

وكان اجيت بالاكريشنان مؤسس Rediff.com رديف دوت كوم، أكبر بوابة للإنترنت في الهند والشركة الإعلامية التي تمتلك صحيفة «انديا ابرود» «India Abroad» من بين مطبوعات أخرى، كان قد قدم لي عندما التقيته مؤخراً لتناول القهوة في بومباي وصفاً

موجزاً لأسوأ كابوس يراه: «هل تريدين مني أن أبلغك عن السبب الذي يجعلني صاحياً ليلاً؟ سوف أقول لك. ربما لا أحفظ هذه الأرقام بشكل صحيح تماماً، لكنني لست أبالغ في تحديدها. فعندما حصلنا على استقلالنا، كان ثمانون بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي (GDP) مصدره الزراعة وكان خمسة وسبعون بالمئة من أبناء شعبنا يعيشون في المناطق الريفية. اليوم هنالك فقط ثلاثون بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي يأتي من الزراعة ومع ذلك فإن سبعين بالمئة تقريباً من أبناء شعبنا ما زالوا يعيشون في المناطق الريفية. ونحن ربما نحتاج إلى نحو عشرة بالمئة فقط من السكان المشتغلين في الزراعة. لذا قولي لي أنت: كيف بحق السماء سوف نوجد خمس مئة مليون وظيفة للناس الذين سوف يتركون العمل في الزراعة، وسوف يحتاجون إلى التوظيف، إضافة إلى عشرات الملايين من الوظائف التي نحتاجها للناس الذين يعملون في وظائف أدنى من مؤهلاتهم، والناس العاطلين عن العمل الآن في المدن، وإضافة إلى الأجيال الجديدة الصاعدة، في حين يستمر عدد السكان في التزايد؟ وقال وهو يستند بظهره في مقعده ثانية ومركزاً عينيه عليّ: إن ذاك هو ما يبقيني صاحياً في الليل».

استقطب قطاع تكنولوجيا المعلومات في الهند الاهتمام الدولي وأوجد تحولاً في طريقة تفكير جيل جديد من الشباب الهندي الذي يدرك أن التميز والعمل الجاد يمكن أن يقودا إلى التقدير والنجاح. غير أنه بالنسبة لكل ما يمكن رؤيته بصدد التكنولوجيا المتقدمة في بنغالور، فإن المشروعات التجارية المتصلة بتكنولوجيا المعلومات في الهند قد أوجدت وبشكل مباشر مجرد (1.3) مليون وظيفة مع (3) ملايين وظيفة أخرى تم اعتمادها بشكل غير مباشر. وهذا لا يقترب أبداً من مقياس إيجاد الوظائف الذي يتطلبه التعداد السكاني المتزايد للهند. فالتصنيع سوف يوجد بعض الوظائف التي لا بد أن شبان الهند بأمسّ الحاجة إليها. وسوف تتيح المنتجات التي تعتمد في صناعتها على نظام التسليف الجديد، ولا سيما نظام تمويل القروض الصغيرة، للآخرين بدء أعمال تجارية على نطاق ضيق. وتحظى تنمية المناطق الريفية في الهند حيث يعيش (850) مليون هندي، بإمكانية تحسين حياة المزارعين وإيجاد فرص جديدة في المدن الصغيرة والمتوسطة الحجم في البلاد. وستحتاج الهند إلى هذا كله،

وإلى المزيد، من أجل تلبية الحاجات الأساسية والطموحات التي جرى تشجيعها حديثاً في نفوس شعبها العديد.

ويؤيد ناندان نايلكاني الرأي القائل: إن إيجاد الوظائف هو أحد أكبر التحديات التي تواجهها الهند. وقد أبلغني وهو يتحدث عن قطاع تكنولوجيا المعلومات وحده: «إننا نحتاج إلى تحسين نمونا الاقتصادي بالفعل، لأننا نحتاج إلى إيجاد عشرة ملايين إلى اثنتي عشرة مليون وظيفة جديدة. وهناك أيضاً مقدار كبير من التفاوت بين الأقاليم. فدخل كل فرد في إقليم جوا يعادل أربعة أضعاف الدخل في إقليم بيهار. والعولمة هي في صالحنا. والابتكار ليس بمشكلة، وليس لدينا نقص في الأفكار، إلا أن التحدي يزيد من حجمه».

ويتمثل التحدي كذلك في التحرك بسرعة والتعامل مع أزمات متعددة جميعها وعلى الفور. وبالإضافة إلى الجوع، وڤيروس العوز المناعي البشري/ مرض الإيدز، والبطالة الجماعية، فإن الهند تواجه أزمة مياه حادة. ومع وجود (17) بالمئة من سكان العالم ولكن (4) بالمئة فقط من مياهه العذبة، فإن استهلاك الموارد المائية للهند يجري الآن بشكل يفوق طاقتها. كما يجري استنزاف مكامنها الجوفية وطبقاتها الصخرية المائية على نحو أسرع من وتيرة إعادة إشباعها بالمياه، مما يؤدي إلى تسرب مواد كيماوية خطيرة بما في ذلك الزرنيخ والفلورايد، إلى المخزون المائي المتبقي للطبقات الجوفية. كذلك فإن مياه الهند ملوثة إلى درجة كبيرة بمياه الصرف الصحي وبقاذوراتها وبالمخلفات الصناعية غير المعالجة ومفرزات المبيدات الحشرية. وتهدد الصين بإقامة سد على نهر براهما بوترا قبل وصوله إلى الحدود الهندية، وهي خطوة سوف تكون لها عواقب كارثية بالنسبة للملايين من الهنود.

ويؤدي الاحتباس الحراري إلى تقلص المساحات المغطاة بالثلوج في جبال الهيمالايا، وربما يقوم بتغيير أنماط هطل الأمطار التي يعتمد عليها الكثير من الأعمال الزراعية. وسوف تؤثر هذه العملية على الجنوب الاستوائي بصورة سلبية أكثر من تأثيرها على مناطق الشمال ذات المناخ المعتدل، فالاحتباس الحراري العالمي ينذر باحتمالات مرتقبة تشمل إغراق جزر اندامان ونيكوبار الهندية وغمر المناطق الساحلية بالمياه، وهي تشكل موطناً لمئات الملايين من السكان. وفي منطقة غرب البنغال وبنغلاديش المجاورة وحدها، قد تؤدي الارتفاعات المتوقعة

في منسوب مياه البحر إلى نزوح وتشريد ما قد يصل إلى ستين مليون شخص، ما لم يتم اتخاذ إجراء جذري لإيقاف انبعاث الغازات المتصاعدة من البيوت الزراعية البلاستيكية.

إن اندفاع الهند لتطوير صناعة الحديد الصلب لديها وتطوير قاعدتها التصنيعية يدفع بشركات التعدين وأصحاب المصالح المتنفذين إلى مناطق تعد تقليدياً موطن السكان القبليين الأصليين أو «الأديڤاسيز» Adivasis كما يعرفون اليوم. وكانت المناطق الغنية بالمعادن في ولايتي تشهاتيسغار واوروويسا قد شهدت نزاعات دموية بين شركات صناعة الحديد الصلب الكبيرة والسكان المحليين على خلفية طردهم من أراضي أجدادهم. وغذى الحرمان الاقتصادي الحاد والفوارق الاجتماعية المؤلمة نمو حركة تمرد تتبنى تعاليم الزعيم الصيني الراحل ماوتسي تونغ تدعى «حركة الناكسال» TheNaxalites وسميت باسم بلدة ناكسالباري Naxalbari في غرب البنغال، حيث نظمت جماعة صغيرة منشقة عن الحزب الشيوعي الهندي انتفاضة فلاحية مسلحة في عام 1967. وقد امتد الناكسال حالياً إلى ما هو أبعد كثيراً من غربي البنغال. وتعتز الحركة بجيش قوامه نحو 20,000 رجل[8] وعدد غير معروف من المناصرين الذين تتكاثر صفوفهم بفعل ما يلحقهم من المظالم الاقتصادية والاجتماعية القاسية. ويعلق القرويون داخل المناطق التي ينشط فيها الناكسال، وسط تبادل إطلاق النار ما بين المتمردين وقوات الأمن. وقد أسرَّ لي محلل هندي كبير في نيودلهي العام الماضي بأن البعض يخشى بأن ما يُدعى «بالممر الأحمر» للناكسال لديه القدرة على العمل بأقصى إمكانياته في طول البلاد وربط المتمردين الماويين (تيار الزعيم الصيني الراحل ماوتسي تونغ) في نيبال برجال العصابات في سريلانكا. ومن الواضح أن الهند تواجه تحديات مخيفة لا بد من التغلب عليها -وبسرعة- وإلا فإن المخاض الهائل لولادة دولتها الجديدة سوف يتضرر.

الابتكار من أجل البقاء

قال لي مسؤول تنفيذي هندي كبير: «لدينا فسحة زمنية تمتد ما بين خمس وسبع سنوات. فالهند لا تنعم بترف الوقت. ولا بد لها من أن تواجه وعلى الفور مجموعة من المشكلات بطرق تكون قابلة للمتابعة ومقبولة. ولا بد لها من أن تعمل على إدارة وتحريك

وسائل التكنولوجيا الجديدة بشكل يقلل إلى أدنى درجة من الضرر اللاحق بالبيئة، في حين تعمل على زيادة الموارد غير الكافية إلى حدها الأعلى من أجل تأمين المنافع التي تشكل حاجة ماسة للأعداد الضخمة من السكان. ويجب على الهند أن تستخدم -تستغل- موهبتها الثابتة المؤكدة بالنسبة للابتكارات التكنولوجية لكي توجد الحلول التي تحتاجها.

وتجازف السيارات الجديدة، ومصانع ومنشآت الطاقة الكهربائية، والمعامل في الهند بإضافة ملايين الأرطال من مادة الفحم إلى مناخ مثقل بالمادة سابقاً، ما لم تتحرك البلاد لتعزيز نموها بطاقات بديلة نظيفة. والهند هي الدولة الوحيدة التي لديها وزارة للطاقة غير التقليدية. كما لديها الإمكانية؛ لأن تصبح رائدة في ابتكار التقنيات الحديثة للإنتاج النظيف للطاقة. وتشكل الشركة الهندية سوزلون «Suzlon» مثالاً على كيفية تمكن الهند من زيادة حجم الطاقة البديلة وجعلها عالمية. فقد أصبحت شركة سوزلون وأثناء سنوات قليلة إحدى الشركات الرئيسة في مجال توليد الطاقة الكهربائية باستنباط طواحين الهواء، وهي تبيع الكهرباء لمنشآت ومرافق في ولاية كاليفورنيا وغيرها من الأسواق الأجنبية. وفي حين ترتفع أسعار النفط باتت وسائل التكنولوجيا البديلة أكثر جذباً للاهتمام بصورة متزايدة. ولدى ذكاء التكنولوجيا والحاجة الماسة لإيجاد حلول نظيفة للطاقة.

وتستخدم الهند وسائل التكنولوجيا الرقمية لإيصال الخدمات الصحية والتعليمية إلى الفقراء في المناطق الريفية النائية. وهي تقوم باستنباط أدوية نوعية وعلاجات قليلة التكاليف للأمراض الوبائية، وتوجد نماذج جديدة لتقديم رعاية صحية عالية المستوى بما في ذلك إجراء أحدث العمليات الجراحية وأكثرها تطوراً للفقراء. «إننا نحاول التفريق ما بين الرعاية الصحية والغنى» هذا ما قاله لي الدكتور ديفي شتّي مؤسس مستشفى «نارايانا هرودايالايا» لأمراض القلب وأحد أكثر الأشخاص المميزين الذين قابلتهم في الهند. وأضاف: «ربما يستمر الناس في أن يكونوا فقراء، لكنهم سوف يحصلون على الرعاية الصحية التي تعتمد تكنولوجيا متقدمة بكرامة». لقد باتت الهند أيضاً مقصداً جذاباً لتلقي العلاج في الخارج: فبإمكان الأمريكيين الذين ليس بمقدورهم تحمل نفقات العمليات مرتفعة التكاليف في الولايات المتحدة السفر إلى الهند وإجراء هذه العمليات مقابل دفع جزء صغير من التكلفة.

وتقوم الهند باستخدام التكنولوجيا من أجل خفض ثمن السلع الأساسية بحيث تجعلها متيسرة لأعداد متزايدة من الناس. كذلك تعمل الهند على إنتاج هواتف خليّوية ثمن الواحد منها عشرون دولاراً، وتصميم سيارات ثمن الواحدة منها ألفا دولار. وهي تعمل على صناعة أجهزة حاسوب غير مكلفة تقاوم الحرارة العالية وانقطاعات الكهرباء المتكررة. كما تقوم بإنشاء نماذج تجريبية لمصانع توليد الطاقة الكهربائية على نطاق ضيق، وهي تدار بفضلات المحاصيل مما يمكّن المزارعين من بيع الفائض من التيار الكهربائي ثانية إلى شبكة الخطوط الكهربائية. وليس في وسع معظم الناس في العالم تحمل عبء دفع الأسعار المطلوبة للسلع والخدمات في الغرب. غير أن لدى الهند الإمكانية لجعل تلك السلع والخدمات متاحة بأسعار يمكن للعالم بأسره أن يتحمل تكاليفها.

الطريقة الهندية

في خطابه الشهير الذي أذيع على الراديو في الساعة الثانية عشرة من منتصف ليل إعلان ولادة الهند دولةً مستقلةً بتاريخ 15 آب 1947، بيّن جواهر لال نهرو، أول رئيس وزراء للبلاد، وبوضوح، الوعد الجديد للدولة إلى شعبها قائلاً:

> «المستقبل يومئ إلينا. فإلى أين نتجه وما الذي سنسعى إليه؟ تأمين الحرية وإتاحة الفرصة للناس العاديين للفلاحين، وللعمال الهنود؛ مكافحة الفقر والجهل والمرض والقضاء عليهم؛ بناء دولة مزدهرة، ديمقراطية ومتقدمة؛ وإقامة مؤسسات اجتماعية واقتصادية وسياسية تضمن العدل والحياة الكريمة لكل رجل ولكل امرأة[9]»

وتظل هذه الأهداف أهدافاً مشجعة بقدر ما هي محيرة. ولا يزال فقراء الهند بانتظار الفرصة المواتية وبانتظار العدل، ولا يزال جزء كبير جداً من معيشتهم مثقل بالفقر، والجهل، والمرض. وما من شك أن بعض أسوأ حالات الاستغلال للكائنات البشرية يحدث في الهند -عبودية عقود الخدمة، وتجارة الجنس غير المشروعة واستغلال النساء والأطفال فيها، عمالة الأطفال، قتل الأجنة الإناث وقتل الأطفال- والأقل إثارة مع أنها موهنة بالمقدار نفسه، شدة الفقر وشدة المرض وشدة اليأس التي يعانونها يومياً.

وفي مواجهة أوضاع الأزمات التي لابد أن تعمل على حلها وإلا جازفت بتبديد الوعد الرائع لهذه اللحظة، فإن الهند تأخذ على عاتقها القيام بالمهمة الجبارة للوفاء بالتعهدات التي أعطاها نهرو للشعب ساعة إعلان استقلالها. ولقد استغرق الأمر بالبلاد ستين عاماً للوصول إلى هذه المرحلة، وهو ليس بالوقت الطويل في مهنة الأمم؛ ويعد سريعاً جداً بمقياس المسيرة الزمنية القديمة للهند باتجاه المدنية والحضارة.

وتدرك الهند أن عليها أن تخترع طريقتها الخاصة في العالم. وكنت قد سمعت مراراً وتكراراً ترجمة ما للاستراتيجية الراديكالية الآتية لنجاح الهند، تتعارض فيها أسس البداية مع ماهو بديهي: عالج كل مشكلة باعتبارها فرصة مواتية. ففي دولة تضم أكثر من مليار شخص، ابدأ بالتأكيد أنه في اقتصاد المعرفة، كل عقل لم تستغل قدراته بعد، هو ميزة بانتظار إدراكها. دع القوة المؤكدة لتنظيم المشروعات تؤثر في أكثر المشكلات استعصاءً، ولكن لا تفترض أن الاستثمار الخاص وحده يمكنه إنجاز العمل بالمقياس المطلوب وبالسرعة المطلوبة. قم بتكوين علاقات شراكة ما بين العمل، والحكومة، والمنظمات غير الحكومية. قم برعاية الشبكات المترابطة وتوجيه العلاقات ما بين أولئك الذين يمتلكون المعرفة العملية والمهارة وأولئك الذين يرغبون في أن يتعلموا؛ وأيضاً بين أولئك الذين يمتلكون رأس المال، وأولئك الذين يحتاجون إلى رأس المال لبدء مشروع ما. قم وبإصرار بالعمل على خفض التكاليف من أجل خفض الأسعار؛ قم بالإصغاء إلى الفقراء؛ هم يعرفون ما الذي يحتاجون إليه، وامنحهم القوة عن طريق منحهم التعليم الجيد ووسائل كسب العيش، وضع تصوراً لكيفية تلبية احتياجاتهم، وسوف يحالفك التوفيق وتحقق النجاح.

وقال لي شيف سيفاكومار مبتكر برنامج (e-choupal) «اي -تشوبال» الإلكتروني الإبداعي الذي تشرف عليه الشركة الهندية للتبغ (ITC) وهو عبارة عن أكشاك للإنترنت تعمل بمنزله مراكز إعلامية تربط المزارعين بالأسواق في مناطق الأرياف في الهند: «إن نماذجنا تقوم وعن طريق التخطيط السابق بترسيخ الاعتقاد القائل إن بإمكاننا أن نحقق النجاح فقط إذا ما قمنا بعمل مفيد، ونحن نقوم بعمل مفيد فقط عندما نحقق النجاح».

ولدى نارايانا مورثي، الذي كان من المشاركين في تأسيس شركة Infosys ثم تقاعد مؤخراً، نظرية تدعى «الرأسمالية الرحيمة» وقد أبلغني كيف يفهمها. «فالدور الرئيس لشركة كبرى

مساهمة هو إيجاد الثروة بشكل قانوني وأخلاقي. وتلك هي مسؤوليتنا الرئيسة. إلا أنه وفي إطار دولة نامية مثل الهند، فإن مسؤولية الشركة تصل إلى ما هو أبعد من ذلك. حيث إنه يجب عليك أن توجد حسن النية في المجتمع. وذاك لا يعني أن على الشركات التجارية أن تتولى القيام بمسؤوليات الحكومة. إن الإسهام الكبير الذي يمكن لشركة ما أن تحقق به الصالح العام يتمثَّل في علاقات الشراكة ما بين الخاص والعام».

أما في الولايات المتحدة، واختصاراً لما ورد في شهادة تشارلز إروين ويلسون الرئيس السابق لشركة جنرال موترز أمام لجنة الخدمات العسكرية التابعة لمجلس الشيوخ عقب تسميته وزيراً للدفاع من قبل الرئيس أيزنهاور، فإن «ماهو مفيد لشركة جنرال موترز يكون مفيداً للبلاد». ومنذ أن قيل هذا الرأي في عام 1952، عانت شركة جنرال موترز ظروفاً صعبة، وسرحت ثلاثين ألف شخص في الولايات المتحدة في عام 2006، ومع ذلك فإن فكرة أن كل ما يصب في مصلحة الشركات الأمريكية هو لصالح الشعب الأمريكي تظل تشكل مفهوماً أساسياً بالنسبة للسياسة الخارجية والداخلية للولايات المتحدة.

ومعظم رؤساء الشركات التجارية الهنود الذين التقيتهم يقلبون الصيغة رأساً على عقب. وهم يؤمنون بصدق أن نجاح مشروعاتهم ونشاطاتهم الاستثمارية يرتبط في النهاية بمدى إسهامهم في مواجهة المشكلات الملحة لبلادهم. وقد عبر موكيش آمباني عن ذلك بإيجاز بليغ بقوله: «إن ماهو مفيد للهند مفيد لشركة ريلاينس».

الرأسمالية الشمولية

ألقى واي.سي. ديفيشوور رئيس مجلس إدارة الشركة الهندية للتبغ، إحدى أكبر الشركات المساهمة في الهند خطاباً مثيراً أمام المساهمين من حملة الأسهم في شركته العام الماضي. وفي حين أنه كان مسروراً بإعلانه للمستثمرين أن العائدات السنوية بلغت (30) بالمئة، فقد كان فخوراً فعلاً بإبلاغهم بتحقيق هذه النتائج حتى بينما «تقوم شركتكم بوضع معايير جديدة في أداء مثلث الحد الأدنى المطلوب. وبصفته رئيساً لشركة يقوم عملها المعتاد على التبغ، فقد كان ديفيشوور يمتلك حافزاً خاصاً لتحويل الشركة الهندية للتبغ إلى مواطن تجاري صالح. ولا تزال السيرة المهنية الخاصة بالمسؤولية التجارية للشركة تثير الإعجاب

والاحترام. فالشركة الهندية للتبغ التي كانت تعمل من قبل على خفض استهلاكها من المياه إلى الحد الأدنى، وتلتزم باتخاذ إجراءات لضمان المحافظة على الموارد المائية أصبحت حريصة على وضع حد لانبعاث غاز ثاني أوكسيد الكربون من معاملها في عام 2006، وقد قطعت شوطاً لا بأس به في طريقها للوصول إلى وضع ينعدم فيه طرح النفايات الجامدة».

ويأخذ مثلث الحد الأدنى المطلوب في الحسبان البيانات والأوضاع المالية والاجتماعية والبيئية والنتائج التي تعوّدها. وقد أرجع السيد ديفيشوور نجاح الشركة الهندية للتبغ عبر هذه النقاط الأساسية الثلاث جميعها إلى قيم الشركة المتأصلة بعمق في روح الشعب الهندي والمميزة بتراثها ومعتقداتها. وأكد ديفيشوور أن هذه الخصوصية «تقرر خيار إستراتيجية الشركات التجارية، وتوجه مثل هذه الإستراتيجية لصالح سلسلة القيم الهندية أينما كان ذلك ممكناً ومعقولاً، وتشرك المؤسسة بإرادتها في مواجهة التحديات الاجتماعية الأكبر للنمو الشمولي والقابل للاستمرار».(10)

ويزداد اقتراب بعض زعماء الهند الأكثر امتلاكاً للأفكار والرؤى الثاقبة من هذا النموذج الرأسمالي الجديد الذي يحقق الثروة ويشجع على احتواء الطبقات الاجتماعية في بوتقة واحدة ومساندة البيئة. لقد جعلت حكومة الهند من سياسة الاحتواء الجزء الأهم من سياساتها الداخلية فشددت على التعليم المطور للجميع، وسنت القانون الوطني لضمان توظيف سكان الأرياف بهدف توفير أصغر شبكة أمان اجتماعية ممكنة للفقراء في المناطق الريفية في الهند. والسبب بسيط: ليست هنالك من طريقة أخرى.

القدرة على التخيل

لقد سمعت هنوداً كثيرين جداً من اناند ماهيندرا إلى موليكا دوت، ومن غوثام تشوبرا إلى روهيني نايلكاني، سمعتهم يقولون: إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يؤدي إلى تأخر الهند في هذه اللحظة التاريخية الحرجة هو حدوث قصور في المخيلة وضعف القدرة على التخيل. والأمر ذاته يصح بالتأكيد بالنسبة لبقيتنا. فكوكبنا يترنح عند حافة كم هائل من الأزمات المخيفة، تتراوح ما بين الاحتباس الحراري، إلى الأوبئة المتفشية القاتلة، إلى فوضى الإرهاب والحروب. إن الاعتقاد بأن النمو الاقتصادي والتطور أمران ممكنان فقط عن

طريق التضحية بالإمكانيات، التي تنطوي عليها حياة المليارات من الكائنات البشرية، أو عن طريق إلحاق ضرر هائل ببيئتنا المشتركة، يعني الإصابة بقصور حاد في القدرة على التخيل. وإذا ما كان بإمكان الهند أن توجد اقتصاد معرفة يكون اقتصاداً متكيفاً مع التحديات التي تواجهها، وإذا كان بإمكانها أن تغيرِّ عصر المعلومات إلى عصر للحكمة، فإنها سوف تنقذ نفسها - وتنقذ البقية منا كذلك.

إن سياسة الاحتواء الهندية سوف تخفف، وفي أفضل العوالم الممكنة جميعها، من حالة الانقسام الاقتصادي للرأسمالية الأمريكية، بينما ستؤدي عملية تنظيم المشروعات والأنشطة الاستثمارية ومزاولة الأعمال الحرة على الطريقة الأمريكية إلى تحفيز الاقتصاد الهندي. إن التزام الهند بعالم متعدد الأقطاب والتزامها بتعميم الديمقراطية في النظام العالمي النامي سوف يضع حداً للتوجه الأحادي الصارخ لأمريكة. وإن تركيز الهند على الإبداع في تطوير موارد بديلة للطاقة في توسيع الفرص التعليمية، والرعاية الطبية، وسبل العيش لأفقر مواطنيها سوف يدفع البلاد بقوة إلى مراكز قيادية في مجموعة كبيرة من المناطق الجديدة مجبراً الولايات المتحدة على إعادة النظر في سياساتها وأولوياتها. إن التزام الشركات الهندية بمبدأ تحقيق النجاح في العمل عن طريق القيام بالعمل المفيد، سوف يقيم مثالاً على رأسمالية شمولية ستشكل نموذجاً للعالم. وإن النقاش القديم الممل حول رغبة الولايات المتحدة في أن تفعل الشيء الصائب -مثلاً التحكم في انبعاث غازات البيوت الزراعية البلاستيكية- إلا أنه ليس بوسعها القيام به تماماً، هذا النقاش سوف يتم طيه، في حين تثبت الهند للعالم أنه ما من أحد بوسعه عدم التصدي لمعالجة هذه المشكلات. وبتجرُّئها على تخيل عالم مختلف، سوف تندفع الهند بقوة هائلة في موجة من النمو الاقتصادي تدعمها حلول إبداعية للمشكلات التي تهدد مستقبلنا الجماعي.

مصير العالم من مصير الهند

وبغض النظر عن أية مشكلة ملحة نفكر فيها -من الاحتباس الحراري العالمي، إلى الأوبئة المتفشية إلى أزمة الطاقة وإلى الهوة الواسعة القائمة ما بين الغني والفقير- فإن الوقت هو جوهر الأمر هنا ويشكل أهمية كبيرة. وتواجه الهند بتعداد سكانها الكبير ونموها

الاقتصادي المتسارع جميع هذه التحديات بإلحاح أكثر كثيراً مما يفعل البشر في عالم الدول الصناعية. ويجب علينا أن نركز انتباهنا على الوجهة التي تسير إليها الهند: فمن المرجح أننا جميعاً سوف يؤول مصيرنا هناك عاجلاً أم آجلاً.

وتُطوق الهند كل الوعود وكل المخاطر التي تكتنف هذه اللحظة الحاسمة في تاريخ البشرية. إن الهنود الذين كان لي شرف لقائهم والذين شاركوني رؤيتهم وتفانيهم يجمعون ما بين طموح رائع ومشكلات رهيبة جداً إلى حد أن الكثيرين منا يميلون إلى التظاهر بأنها غير موجودة. والهنود لا يملكون ترف التظاهر. ولا نحن في النهاية.

إن الهند تؤثر في حياتنا الآن بطرق أكثر كثيراً مما يدركه معظمنا. والحقيقة أننا غدونا نعيش سابقاً على كوكب الهند بكل معنى الكلمة. هذا الكتاب يتحدث عن نوع الكوكب الذي يمكن أن يكون عليه ذلك.